

واقع ومستقبل المشروع الإمبراطوري الأمريكي

د. مازن النجار

(باحث وأكاديمي عربي)

ملخص البحث

تمر الولايات المتحدة الأمريكية اليوم بمنعطف فريد في تاريخها. فلم يعرف البيت الأبيض في تاريخه الطويل رئيساً أيديولوجياً كما هو جورج دبليو بوش، أو إدارة إمبريالية التوجّه كإدارته التي سيطر عليها منذ البداية «المحافظون الجدد»، واستغلوا توجهات الرئيس «الإنجيلية» النبوءاتية، واختياراته «المثالية» البسيطة لفرض أيديولوجيتهم وفكرهم على القطب الأوحّد في العالم.

احتل المشروع الإمبراطوري للرئيس جورج بوش معظم سنوات ولايته الرئاسيتين، ومعظم حراك إدارته. وفي ضوء تكاليفه الباهظة ونتائج الهزيلة وآفاقه المجهولة، يوشك هذا المشروع أن يصل منتهاه مع انطلاق الحملة الانتخابية الرئاسية التي بدأت انتخاباتها الحزبية التمهيدية لاختيار مرشحي الحزبين المتنافسين ببداية العام الجديد.

وخلال السنوات السبع العجاف الماضية طرأت تغييرات وتبدلات عديدة على التجربة الأمريكية يمكن من خلالها رؤية ملامح، أو آفاق السنوات القادمة في هذه التجربة، فقد ولدت «الحرب على الإرهاب» ثقافة الخوف في الولايات المتحدة، وأحدثت تأثيراً مدمراً على الديمقراطية الأمريكية والنفسية الأمريكية، ومكانة الولايات المتحدة في العالم، وأدت السياسات الاقتصادية التي انتهجتها إدارة بوش لاضطرابات سياسية واجتماعية، فيما شكلت الفوضى التي صنعتها سنوات بوش في الشرق الأوسط تهديداً أساسياً للاقتصاد العالمي.

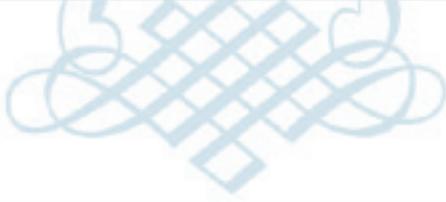
ولم يعد ممكناً تجاهل الفجوة المتزايدة بين أهداف أمريكا الكونية المعلنة وبين قدراتها العسكرية على تحقيق هذه الأهداف، خاصة مع تزايد تكاليف الحروب الأمريكية وتفاقم أعباء جيشها، ووقوعها في مأزق الأحادية العسكرية، وقصور مواردها عن الوفاء باحتياجات المشروع الإمبراطوري، ما يقود لنهاية حقبة تفرد الهيمنة الأمريكية في الشرق الأوسط «الجديد».

إن التحولات الجوهرية الخطيرة في الأولويات الاستراتيجية الأمريكية، من احتواء روسيا والصين إلى إخضاع الشرق الأوسط لا يفسرها إلا تسخير المحافظين الجدد للاستراتيجية الأمريكية لخدمة المشروع الإسرائيلي، والتمكين له في منطقة يجب أن يُعاد صوغها لتصبح خاضعة له، وعاجزة أمامه. ويمكن اعتبار مؤتمر أنابوليس هو تدشين تحول جديد لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وقضية فلسطين. بعدما قدمها على أنها ساحة أخرى للحرب على الإرهاب والتطرف الأصولي، وليست قضية احتلال وطن وشعب يطالب بالاستقلال وعودة الديار.



أفكار ومقتطفات

- لم يعرف البيت الأبيض في تاريخه الطويل رئيسًا أيديولوجيًا كما هو جورج دبليو بوش، أو إدارة إمبريالية التوجّه كإدارته التي سيطر عليها منذ البداية «المحافظون الجدد» وأشباههم وبرنامج اهتماماتهم وأولوياتهم.
- صنعت «الحرب على الإرهاب» ثقافة الخوف في الولايات المتحدة. فقيام إدارة بوش بتحويل هذه الكلمات الثلاث إلى شعار وطني، منذ أحداث ١١ سبتمبر/أيلول، كان له تأثير مدمر على الديمقراطية الأمريكية والنفسية الأمريكية ومكانة الولايات المتحدة في العالم.
- الدعم الذي تلقاه الرئيس بوش في انتخابات ٢٠٠٤م الرئاسية يعود جزئيًا إلى فكرة أن «أمة في حالة حرب» لا تغير القائد الأعلى لقواتها المسلحة في منتصف المعركة. فالإحساس بالخطر، وإن لم يكن محددًا أو دقيقًا، قد تم توجيهه نحو اتجاه سياسي نفعي من قبل النداء التعبوي؛ لكون البلاد في «حالة الحرب».
- العبارة الشائعة في أروقة الإدارة الأمريكية هي أننا نحارب في العراق؛ لأن هذا البلد هو «الجبهة المركزية في الحرب على الإرهاب»، بينما الحقيقة هي العكس تمامًا. فنحن متورطون فعلاً بحرب عبثية لا يمكن كسبها ضد الإرهاب، وكان مطلوبًا اختراعها ذريعة لغزو العراق، هكذا يخلص إيان لاستك، أستاذ العلوم السياسية بجامعة بنسلفانيا.
- الفوضى التي ولدتها سنوات بوش في الشرق الأوسط تشكل أيضًا تهديدًا أساسيًا للاقتصاد العالمي. فمنذ بدء حرب العراق في ٢٠٠٣م لم يرتفع إنتاج نفط الشرق الأوسط، الأقل كلفة في العالم، كما كان متوقعًا ليلبي الطلب العالمي. وتجاوز سعر برميل النفط المائة دولار، رغم اعتدال نمو الطلب، نظرًا لتباطؤ الاقتصاد الأمريكي، مما يمثل مخاطر عالمية.
- تعود جذور مشكلة الاقتصاد الأمريكي لإجراءات اتخذت في بداية ولاية بوش الأولى؛ خاصة تخفيضات ضريبية أخفقت في تحفيز الاقتصاد؛ لأنها صُممت لصالح دافعي الضرائب الأكثر ثراء.
- في حملة الانتخابات التشريعية الأمريكية الماضية (٢٠٠٦م)، لمس مراقبون توجّهًا لدى الناخبين نحو «الوطنية الاقتصادية» المتمثلة بدعم وحماية الإنتاج الوطني، وحماية فرص عمل الأمريكيين من تهديد العمالة الوافدة، أو نقل مراكز الإنتاج إلى دول العمالة الرخيصة، وخفض العجز في الميزان التجاري، وتقليص النزعة التدخلية وأعبائها التي تفاقم عجز الموازنة والاستدانة.
- قدرات أمريكا العسكرية، ليست الغواصات أو حاملات طائرات أو قاذفات بي-٢ العملاقة، وإنما قوات الجيش الموجودة على الأرض، والمنتشرة بخطوط طويلة تفوق قدراتها، ووحدات مشاة البحرية بالعراق وأفغانستان. لا حاجة لعبقرية عسكرية لإدراك أن هذه القوات وصلت آخر حدود قدرتها على الاحتمال، بل غدت أقل كثيرًا بالنسبة للتوقعات والمهام المطلوب منها بأرجاء العالم.
- في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٦م، أعلن الجنرال جون أبي زيد، أعلى قائد عسكري مكلف بالعراق، أن الجيش غير قادر على زيادة قواته بالعراق، كأول اعتراف يصدر عن مسئول عسكري رفيع بأن القوات البرية الأمريكية وصلت حدود طاقتها في العمل العسكري.



- يلاحظ فوكوياما أن العقيدة العسكرية الأمريكية تعتمد استخدام القوة المفرطة وبشكل مفاجئ وحاسم لدحر العدو. لكن القوة المفرطة، في ظل غموض هوية الميليشيات والمسلحين، ستولد آثاراً عكسية؛ وستعزل الذين يحاولون دحر المسلحين ومنعهم من الحراك. فنوعية الحملة المطلوبة لدحر «الميليشيات» و«الإرهابيين» المؤقتين، تقتضي تقديم الأهداف السياسية على العسكرية، وتؤكد على كسب القلوب والعقول لا ترويعها.
- ساهمت الولايات المتحدة بزيادة قوة إيران إقليمياً باحتلالها للعراق وإسقاط نظام البعث، وإيصال أحزاب شيعية مؤيدة لإيران للسلطة في العراق.
- بنهاية ولاية بوش، يُرجح أن يتحول مركز الاهتمام الأمريكي إلى المحيط الهادي. وستتبنى الإدارة القادمة سياسة خارجية أقرب لسياسات الرؤساء الديمقراطيين أو الجمهوريين المعتدلين. وستصبح إدارة المخاطر حاكمة بدون مغامرات على نمط غزو العراق. كما أن دور باكوم في حوض الهادي لن يكون مقيداً بالسياسة الداخلية في واشنطن، أو ما يشابه اللوبي الإسرائيلي.
- المرجح أن الصين سوف تواجه مخططات الاحتواء والردع بعدة طرق. فهي دولة ذات عقلية دفاعية، بتطوير أساليب وتقنيات تواجه التفوق العسكري الأمريكي، وجيشها شديد الاجتهاد والتوق للتعلم والتكيف. ودفعت حروب كوسوفو والعراق مخططي الجيش الصيني للتركيز على مواجهة هيمنة التكنولوجيا الأمريكية في أرض المعركة.
- التحول الخطير في أولويات الاستراتيجية الأمريكية من احتواء روسيا والصين إلى إخضاع الشرق الأوسط، لا يفسره إلا تسخير المحافظين الجدد للاستراتيجية الأمريكية لخدمة المشروع الإسرائيلي، والتمكين له، في منطقة يجب أن يعاد صوغها لتصبح خاضعة له، وعاجزة أمامه.
- يلاحظ الجنرال وليم أودوم أن «تقديرات الاستخبارات الوطنية حول العراق» الصادرة بداية ٢٠٠٧م، تحدد أبعاد الفجوة بين أوهام الرئيس وواقع الحرب. فإن كان الانتصار، كما يراه الرئيس، يشترط ديمقراطية ليبرالية مستقرة بالعراق وموالية لأمريكا، فتقديرات الاستخبارات الوطنية تصف حرباً لا حظ لها في تحقيق تلك النتيجة. فهذه التقديرات، التي تعكس رأي وكالات الاستخبارات الأمريكية، تمثل إعلان هزيمة. فلم تكن هناك أبداً طريقة صائبة لغزو العراق وتحويله نحو الديمقراطية، ويعلم معظم الأمريكيين ذلك يقيناً.
- شهد مؤتمر أنابوليس أواخر نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧م تدشين تحول جديد لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وقضية فلسطين، على جدول الأعمال الأمريكي الإسرائيلي، وربما «الفلسطيني والعربي الرسمي» أيضاً. فالقضية الفلسطينية لم تعد قضية احتلال وطن وشعب يطالب بالاستقلال وعودة الديار، بل هي ساحة أخرى للحرب على الإرهاب والتطرف الأصولي.
- بدأ مؤخراً أن موضع الخلاف الأكبر بين واشنطن وطهران هو دور الأخيرة وطموحاتها الخطرة في العراق، وهو خلاف جيوسياسي بالغ الأهمية، قد يفوق في أولويته وأهميته الراهنة لإدارة بوش الخلاف حول الملف النووي.

واقع ومستقبل المشروع الإمبراطوري الأمريكي

د. مازن النجار : باحث وأكاديمي عربي

تمر الولايات المتحدة الأمريكية اليوم بمنعطف فريد في تاريخها. فالإدارة الجمهورية الراهنة أكملت عامها السابع، وعلى وشك أن تصبح بطة عرجاء مع انطلاق الحملة الانتخابية الرئاسية خلال الشهور القليلة القادمة، وهي فترة لا تسمح عادة للحزب الحاكم بالدخول في أعمال، أو تحركات كبرى، يُخشى من تأثيرها السلبي على حظوظ مرشحه للرئاسة في السنوات الأربع القادمة، أو تلزم الرئيس القادم بما لا ينبغي له، كما أن الجو العام في البلاد لا يُنبئ بتفويض كافٍ لإدارة تعيش شهورها الأخيرة، خاصة إذا ما كانت تحركاتها معرّضة للإخفاق، أو الانتكاس، أو تتسم بالطيش، أو المغامرة التي وسمت برنامجها وحراكها، بل إن قطاعاً كبيراً من المواطنين يترقبون بفارغ الصبر لحظة رحيل الرئيس وإدارته.

لم يعرف البيت الأبيض في تاريخه الطويل رئيساً أيديولوجياً كما هو جورج دبليو بوش، أو إدارة إمبريالية التوجّه كإدارته التي سيطر عليها منذ البداية «المحافظون الجدد» وأشباههم، وبرنامج اهتماماتهم وأولوياتهم. بكلمات أخرى، أدى ذلك إلى صياغة إدارة «قناعات» وليست إدارة «مصالح». استغل هؤلاء المستوى العقلي والفكري المتواضع للرئيس وتوجهاته «الإنجيلية» النبوءاتية، واختياراته السياسية «المثالية» البسيطة لفرض أيديولوجيتهم وفكرهم على القوة العظمى والقطب الأوحده في العالم الآن. وبتعبير كُتاب ومُفكّرين أمريكيين، محافظين وليبراليين، اختطفت هذه الزمرة من المحافظين أقوى دولة عرفها تاريخ الدول، باتجاه أوهام إمبراطورية، ومصالح أنانية، وغايات باطنية، وطموحات حُطرة على بلادهم والعالم.

أدت رؤى وسياسات هذه الإدارة في السنوات السبع الماضية، خاصة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م، وإعلان حرب عالمية ضد الإرهاب، إلى تكاليف معنوية ومادية باهظة تركت آثاراً غائرة على وجه التجربة والحضارة الأمريكية، بحيث يمكن القول بأن عهد هذه الإدارة قد بدّل الثقافة العنوية وحياة الاسترخاء والحلم الأمريكي إلى الأبد، وأنها لن تعود إلى سيرتها أو سيرورتها الأولى إطلاقاً. في هذا السياق، لا بد من استعراض تلك التغيّرات والتبدلات التي طرأت على التجربة الأمريكية في السنوات السبع العجاف الماضية؛ لكي يمكن رؤية ملامح أو آفاق السنوات القادمة في هذه التجربة التي استولت بشكل أو بآخر على مخيلة وتطلعات شعوب وأمم كثيرة.

ثقافة الخوف وتقويض الأمن

لقد صنعت «الحرب على الإرهاب» ثقافة الخوف في الولايات المتحدة. فقيام إدارة بوش بتحويل هذه الكلمات الثلاث إلى شعار وطني، منذ أحداث ١١ سبتمبر/أيلول، كان له تأثير مدمر على الديمقراطية

مبكرًا ضد النازية والستالينية (بينما تتجاهل أن كلاً من ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية كانتا قوتين عسكريتين عتيدتين من الطراز الأول، وهي حالة لا تمتلكها «القاعدة» ولا تستطيع إنجازها، قد تكون الإدارة بصدد إعداد حرب على إيران. مثل هذه الحرب يمكن أن تغرق أمريكا في صراع مُطوّل يمتد من العراق إلى إيران وأفغانستان، وربما باكستان أيضًا.

تشبه ثقافة الخوف جنياً أُخْرِج من قمقمه، وتستحوذ على زمنها ودورة حياتها الخاصة بها، ويمكن أن يكون لها وقع مدمر للمعنويات. فأمریکا اليوم ليست هي تلك الأمة ذات العزم والتصميم والوثاقة بنفسها عندما استجابت لهجوم اليابان على قاعدة «بيرل هاربر» البحرية؛ وهي ليست أمريكا التي قال رئيسها فردريك روزفلت في لحظة أزمة أخرى: «إن الشيء الذي ينبغي الخوف منه هو الخوف ذاته»، وليست أمريكا الهادئة التي شنت حرباً باردة بمثابة وإصرار هادئ، رغم علمها بأن حرباً حقيقية يمكن أن تشب فجأةً خلال دقائق، وتؤدي إلى هلاك نحو ١٠٠ مليون أمريكي خلال ساعات.^(٣)

من يزرع التعذيب يحصد العداوة

وكان اثنان من أبرز القادة العسكريين الأمريكيين، تشارلز كرولك القائد السابق لقوات المارينز، وجوزيف هور القائد العام السابق للقيادة المركزية، قد كتبوا أن الخوف وممارسة التعذيب هما مزرعة الأعداء الجدد. وحذر القائدان من أن الخوف قد يكون حافزاً كبيراً للفعل، فهو الذي دفع الرئيس الأسبق «فرانكلن روزفلت» لاعتقال عشرات الآلاف من المواطنين الأمريكيين الأبرياء خلال الحرب العالمية الثانية، وهو الذي أدى أيضاً لحملة «المكارتية» الشرسة التي دمرت بدورها في الخمسينيات الماضية حياة مئات الأمريكيين. وهو الخوف الذي أدى بأعلى دوائر صنع القرار في أمريكا إلى التصريح بممارسة التعذيب ضد السجناء.^(٤)

الأمريكية والنفسية الأمريكية، ومكانة الولايات المتحدة في العالم. بل إن استخدام عبارة «الحرب على الإرهاب» قد قوّض قدرة أمريكا على مواجهة التحديات الحقيقية التي تواجهها من قِبَل «متطرفين» قد يستخدمون الإرهاب ضدها، هكذا يخلص الدكتور زيفنيو بريجنسكي، المفكر الاستراتيجي الأمريكي، وسكرتير الأمن القومي في إدارة الرئيس الأسبق جيمي كارتر.^(١)

أوقعت هذه الكلمات الثلاث من الإيذاء الذاتي لأمريكا ما هو أعظم مما قد يفكر به المتورطون بهجمات سبتمبر / أيلول. بل إن عبارة «الحرب على الإرهاب» ذاتها لا معنى لها؛ فهي لا تقدم تعريفاً لسياق جغرافي محدد، كما لا تحدد الأعداء المفترضين. فـ«الإرهاب» ليس عدوًّا بذاته، وإنما هو أسلوب (تكنيك) في الحرب والصراع. لكن غموض العبارة كان مقصوداً على نحو متعمد أو غريزي من قِبَل أصحابها. فالإشارات إلى «الحرب على الإرهاب»، والتبويضات المتواصلة بها أنجزت هدفها الأساس: استحثاث ثقافة الخوف، فالخوف يطمس العقل، ويكثف العواطف والانفعالات، ويسهل على السياسيين الفوغاغيين تعبئة الرأي العام لصالح السياسات التي يسعون إليها.

فالحرب التي اختارت الإدارة خوضها في العراق لم تكن لتتال دعم الكونغرس بدون الارتباط النفسي بين صدمة ١١ سبتمبر / أيلول، والوجود المزعوم لأسلحة الدمار الشامل العراقية. كذلك، كان الدعم الذي تلقاه الرئيس بوش في انتخابات ٢٠٠٤م الرئاسية يعود جزئياً إلى فكرة أن «أمة في حالة حرب» لا تغير القائد الأعلى لقواتها المسلحة في منتصف المعركة. فالإحساس بالخطر، وإن لم يكن محددًا أو دقيقاً، قد تم توجيهه نحو اتجاه سياسي نفعي من قِبَل النداء التعبوي؛ لكون البلاد في «حالة الحرب».^(٢)

لتبرير «الحرب على الإرهاب»، صاغت الإدارة سردية تاريخية زائفة، قد تصبح نبوءة ذاتية التحقق. وبادعاء أن حربها الراهنة مشابهة لكفاح الولايات المتحدة

(١) زيفنيو بريجنسكي، الترهيب بالحرب على الإرهاب: كيف قوضت

ثلاث كلمات أمريكا، واشنطن بوست، ٢٥ مارس/ آذار ٢٠٠٧م.

(٢) زيفنيو بريجنسكي، المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تشارلز كرولك وجوزيف هور، التعذيب والأمن الزائف، خدمة لوس

أنجلوس تايمز وواشنطن بوست خاص بـ(الوطن)، مايو/ أيار ٢٠٠٧م.

مبرزاً لهذا الغزو، مستمرة على نحو أعنف من السابق. يُبَدُّ أن السؤال الذي يرد للأذهان هنا: كيف يمكن للحرب ضد الإرهاب أن تمنح لنفسها حياة جديدة، بتوريط الطبقة السياسية ومعظم الأمريكيين، ودفعهم للاعتقاد بأن هناك ضرورة لخوض حرب ضد الإرهاب على الساحة العالمية، حتى ولو لم يقم دليل على وجود مثل هذا العدو في بلادهم؟

وطالما أن الأمر كذلك، فماذا يبرر إنفاق نحو ٧٠٠ مليار دولار التي تم إنفاقها على تلك الحرب؟ وماذا يبرر هستيريا لا أساس لها حول «الخلايا النائمة»؟ وماذا يبرر الإجراءات المكارثية التي يتم اتخاذها؟ وماذا يبرر حالات الإدانة الاستباقية التي لم تشهد البلاد مثيلاً لها منذ الخمسينيات الماضية؟

ينبغي النظر إلى طريقة استجابة الكونغرس للحرب ضد الإرهاب. ففي صيف عام ٢٠٠٣م تم تحديد ١٦٠ هدفاً محتملاً أو معرضاً لهجمات الإرهابيين، مما دفع نواب كل ولاية أو دائرة انتخابية لمحاولة البحث عن أي هدف يحتمل تعرضه لهجمات إرهابية؛ ليتمكنوا من تحصيل على مخصصات مالية إضافية يقرها الكونغرس. فما نتيجة ذلك؟ لقد أدى إلى اتساع نطاق تعريف الأهداف المعرضة للإرهاب، وبالتالي إلى زيادة هائلة في عدد الأصول والموجودات الواجب حمايتها؛ حيث ارتفع رقمها من ١٨٤٩ أواخر عام ٢٠٠٣م إلى أكثر من ٢٨ ألفاً أواخر ٢٠٠٤م، ثم إلى ٧٧ ألفاً أواخر ٢٠٠٥م، ويتوقع أن يكون الرقم قد بلغ ٣٠٠ ألف بنهاية ٢٠٠٦م.^(٧)

اليوم نجد مجموعات الضغط وجماعات المصالح في كل ولاية، تعيد صياغة أهدافها التقليدية واحتياجاتها التمويلية، بحيث تبدو أهم مما كانت عليه سابقاً بحجة حتميات ومتطلبات الحرب على الإرهاب.

انعطاف اقتصادي نحو الركود

منذ أكثر من عام، وهناك تقييمات غير سارة لما يجري في الاقتصاد الأمريكي، وهذا يحدث عادة عندما يكون الاقتصاد في مرحلة انعطاف، وعندما

يلفت القارئان إلى أن الخوف هو التبرير السلوكي الذي وفره للإدارة الحالية جورج تينيت، المدير السابق لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وقد رُوِّج لذلك في كتابه الجديد «في عين العاصفة». تجاهل تينيت في هذا الكتاب، أساليب التعذيب التي استُخدمت بحق معتقلي الحرب على الإرهاب، في إطار البرنامج السري لوكالته والخاص بإجراءات التحقيق. وقد شملت تلك الأساليب والتقنيات «الغمر بالمياه»، و«الحرمان الحسي»، و«الحرمان من النوم»، و«أوضاع القلق والتوتر». وفي دفاعه عن هذه الانتهاكات، قال تينيت: «لقد تناسى الجميع حقيقة جوهرية في النظر إلى سياق الأحداث التي عايشناها خلال الفترة الماضية، ألا وهي الخوف الذي ألمّ بنا نتيجة للشعور بغياب كثير من الحقائق عنا».^(٥)

وبحكم عملهما السابق في ميادين القتال والحروب، قال القارئان: إنهما يدركان جيداً حقيقة الخوف، وما يمكن أن يؤدي إليه من فوضى عارمة، في حالة عدم السيطرة عليه وكَبْحِ جَمَاحه. ومما نعلمه أيضاً أن الخوف يولد القلق، وأنه قد يدفع الأمم والشعوب إلى التصرف على نحو لا ينسجم مع قيمها وطبيعتها.

سباق تبديد الموارد

العبارة الشائعة في أروقة الإدارة الأمريكية هي أننا نحارب في العراق؛ لأن هذا البلد هو «الجيبة المركزية في الحرب على الإرهاب»، بينما الحقيقة هي العكس تماماً. فنحن متورطون فعلاً بحرب عبثية لا يمكن كسبها ضد الإرهاب، وكان مطلوباً اختراعها ذريعة لغزو العراق، هكذا يخلص إيان لاستك، أستاذ العلوم السياسية بجامعة بنسلفانيا^(٦)

لكن بعد خمسة أعوام تقريباً على غزو العراق، نجد أن أوهام «المحافظين الجدد» بشأن إمكانية تحقيق انتصارات رخيصة وسريعة، تبددت تماماً. ورغم ذلك لا تزال الحرب على الإرهاب التي أعلنت

(٥) تشارلز كرولك وجوزيف هور، التعذيب والأمن الزائف، المرجع السابق.

(٦) إيان لاستك، أمريكا ومحاربة الإرهاب.. سباق داخلي على المخصصات، خدمة «لوس أنجلوس تايمز» وواشنطن بوست، يناير/كانون الثاني ٢٠٠٧م.

(٧) إيان لاستك، أمريكا ومحاربة الإرهاب.. سباق داخلي على المخصصات، المرجع السابق.

رفع سقف استنادة الحكومة للمرة الثالثة في عهد جورج بوش. وأثارت الخطوة أسئلة وقلقًا حول وضع البلاد على مسار اقتراض مستدام، وتجاوز الدين القومي ٨ تريليون دولار، نصيب الفرد منه ٢٧ ألف دولار. يؤكد بيتر بيترسون، وزير التجارة الأسبق، أن السياسات المالية غير المسؤولة ستقود البلاد إلى عواقب وخيمة؛ عندما تجتمع أسعار فائدة متصاعدة مع معدلات تضخم متصاعدة؛ مما سيخسف قوة الدولار الشرائية في وقت ترتفع فيه تكاليف كل شيء.^(١٠)

إحدى صيحات التحذير من «انهيار السد»، جاءت في ٢٠٠٧م من جوزيف ستغلنز، الاقتصادي ذائع الصيت الحائز على جائزة نوبل، والأستاذ بجامعة كولومبيا، والمسئول السابق بإدارة كلينتون والبنك الدولي. لاحظ ستغلنز أن العالم قد عبر ٢٠٠٦م دون كارثة اقتصادية كبرى، رغم ارتفاع أسعار النفط، وإفلات زمام الشرق الأوسط، لكن ٢٠٠٦م أسفر عن دروس مستفادة بالنسبة للاقتصاد العالمي، علاوة على إشارات تحذير عديدة حول أدائه في المستقبل^(١١)

فالفوضى التي ولدتها سنوات بوش في الشرق الأوسط تشكل أيضًا تهديدًا أساسيًا للاقتصاد العالمي. فمنذ بدء حرب العراق في ٢٠٠٣م لم يرتفع إنتاج نفط الشرق الأوسط، الأقل كلفة في العالم، كما كان متوقعًا ليلبي الطلب العالمي، وتجاوز سعر برميل النفط المائة دولار، رغم اعتدال نمو الطلب، نظرًا لتباطؤ الاقتصاد الأمريكي، مما يمثل مخاطر عالمية.

تعود جذور مشكلة الاقتصاد الأمريكي لإجراءات اتُخذت في بداية ولاية بوش الأولى؛ خاصة تخفيضات ضريبية أخفقت في تحفيز الاقتصاد؛ لأنها صُممت

اقتربت كلفة الحرب والاحتلال في العراق وأفغانستان من تريليون (١٠٠٠ مليار) دولار، ويتوقع لها أن تتجاوز ذلك.

يكون التوسع الاقتصادي على وشك الدخول في حالة ركود (أو العكس). فلدى الانعطاف، تشير المؤشرات المختلفة، التي تخبرنا عادة باتجاهات هبوب الرياح الاقتصادية. وآخر مرة كانت فيها الأمور تتسم بمثل هذه الحالة من التشوش هي أوائل عام ٢٠٠١م، عندما أخفق معظم الاقتصاديين في إدراك أن الولايات المتحدة تتحدر نحو الركود.^(٨)

فبين أواسط عام ٢٠٠٣م وأواسط عام ٢٠٠٦م، كان النمو الاقتصادي في الولايات المتحدة يتغذى بصورة رئيسة على ازدهار هائل بقطاع الإسكان، الذي يولد وظائف بصورة مباشرة، وأتاح للمستهلكين الإنفاق بالاقتراض مقابل قيمة بيوتهم المرتفعة. يعاني قطاع الإسكان الآن انهيارًا ماليًا؛ رغم الاختلاف حول مدى التردّي الاقتصادي عمومًا الناجم عن انهيار قطاع الإسكان.

منذ صيف ٢٠٠٦م، هبطت أسعار الفائدة على سندات الخزنة طويلة الأجل بصورة حادة، ومردودها الآن دون السندات قصيرة الأجل. لكن استعداد المستثمرين لشراء طويلة الأجل، يعني توقعهم لانخفاض أسعار الفائدة. وذلك يحدث فقط عندما يكون الاقتصاد ضعيفًا، ليجد مجلس الاحتياطي الفيدرالي (البنك المركزي) نفسه مضطرًا لخفض أسعار الفائدة. من يشترون السندات يراهنون على هبوط اقتصادي مستقبلي.^(٩)

اقتربت كلفة الحرب والاحتلال في العراق وأفغانستان من تريليون (١٠٠٠ مليار) دولار، ويتوقع لها أن تتجاوز ذلك. وتزداد ضغوط عجز الموازنة (٦٠٠ مليار لسنة ٢٠٠٦م)، والعجز التجاري (٥٥٠ مليارًا) على قيمة الدولار؛ مما يفسر تراجعها مقابل عملات أخرى.

وكان الكونغرس في مارس / آذار ٢٠٠٦م قد

(٨) بول كروغمان، اقتصاد أمريكا: ٢٠٠٧م عام صعب آخر، خدمة «نيويورك تايمز»، يناير/كانون الثاني ٢٠٠٧م.

(٩) بول كروغمان، اقتصاد أمريكا: ٢٠٠٧م عام صعب آخر، المرجع السابق.

(١٠) مازن النجار، تحولات النظام النقدي العالمي ومخاطره على الفوائد العربية، المجلة، العدد ١٣٧٤، ١٧ يونيو/حزيران ٢٠٠٦م.

(١١) جوزف ستغلنز، هل ينهار السد في ٢٠٠٧م؟، بروجكت سينديكت Project Syndicate، يناير/كانون الثاني ٢٠٠٧م.

أنها ستؤدي لتدهور القوة الأمريكية، بسبب تدهور الإنتاجية والنوعية، ومستويات المعيشة والتعليم والمهارات الإدارية والقيادية، والتفوق التكنولوجي، وتدني الإنفاق على البحث والتطوير، وارتفاع المديونية الحكومية، والعجز المزمّن في التجارة والموازنة.

في حملة الانتخابات التشريعية الأمريكية الماضية (٢٠٠٦م)، لمس مراقبون توجّهاً لدى الناخبين نحو «الوطنية الاقتصادية»، المتمثلة بدعم وحماية الإنتاج الوطني، وحماية فرص عمل الأمريكيين من تهديد العمالة الوافدة، أو نقل مراكز الإنتاج إلى دول العمالة الرخيصة، وخفض العجز في الميزان التجاري، وتقليص النزعة التدخلية وأعبائها التي تقاوم عجز الموازنة والاستدانة، ويتبنى هذا الخط أهم مرشح ديمقراطي رئاسي الآن السناتور جون إدواردز.

خلال الحملة الانتخابية، لوحظ أن مرشحين جمهوريين خاضوا حملات انتخابية عسيرة، لا يتبنون خط الرئيس بوش في اتفاقيات التجارة الحرة في أمريكا الشمالية (نافتا) أو أمريكا الوسطى (كافتا)، أو جعل الصين دولة أولى بالرعاية (تجارياً) أو العوامة. وكان الهجوم على اتفاقيات التجارة الحرة عنصراً هاماً في استراتيجية بعض الديمقراطيين أيضاً.^(١٢)

قصور القدرات عن الأهداف الإمبراطورية

للولايات المتحدة سياسة خارجية معلنة وواضحة هي: «الدفاع عن مصالحها القومية بهزيمة الإرهاب في كل مكان بالعالم، واسترداد السلام في أفغانستان والعراق، وردع كوريا الشمالية وإيران، والحيلولة دون تطويرهما أو امتلاكهما لقدرات نووية، والمحافظة على استقرار شرق آسيا، وتعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان في أيّ مكان تستدعي فيه الحاجة ذلك».

(١٢) باتريك بيوكنن، عودة الوطنية الاقتصادية، تاون هول دوت كوم Townhall.com، ٢٠ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٦م. يذكر أن باتريك بيوكنن سياسي ومؤلف وصحافي أمريكي كاثوليكي من المحافظين القدامى، عمل مستشاراً رفيعاً وكتائباً لخطابات ثلاثة رؤساء أمريكيين: نيكسون، وفورد وريغان. سعى إلى تزكية الحزب الجمهوري له مرشحاً في الانتخابات الرئاسية سنتي ١٩٩٢م و١٩٩٦م.

لصالح دافعي الضرائب الأكثر ثراءً، وأُلقي عبء تحفيز الاقتصاد على مجلس الاحتياط الفيدرالي، الذي خفّض أسعار الفائدة لمستويات غير مسبوقه، وبينما كان أثر القروض الرخيصة على الاستثمارات طفيفاً، فقد أحدثت فقاعة بسوق العقارات، لم تلبث أن انفجرت مهددة أسراً، اقترضت بضمان قيمة منازلها المرتفعة، لاستدامة الاستهلاك. أي: أن ارتفاع أسعار الفائدة وانخفاض أسعار المساكن لا يبشر بخير، وطبقاً لبعض التقديرات، فإن ٨٠٪ تقريباً من الوظائف المستجدة، ونحو ثلثي نمو الناتج المحلي الإجمالي في السنوات الأخيرة، تتأتى مباشرة أو غير مباشرة من اقتصاد العقارات.

وزاد الأمور سوءاً الإنفاق الحكومي غير المنضبط ما أدى لتعويم الاقتصاد أكثر خلال سنوات بوش؛ حيث حقق العجز المالي ارتفاعات جديدة، مما يصعب على الحكومة الآن التقدم لدعم النمو الاقتصادي، بينما تقلص الأسر استهلاكها، بل إن بعض الديمقراطيين خاضوا حملاتهم الانتخابية على وعد بالعودة إلى سياسة مالية عقلانية، أي: أنهم سيطالبون بتخفيض عجز الموازنة، الأمر الذي سيثبط النمو أكثر.^(١٣)

تحول السياسات الاقتصادية

سادت سياسات تحرير الاقتصاد والأسواق، وإعادة الهيكلة، والخصخصة، والدولة، وتفكيك برامج الرفاه الاجتماعي، ورفع الدعم عن السلع والخدمات المقدمة لمحدودي الدخل، وإسقاط السياسات الحمائية (للإنتاج الوطني)، وخفض ضرائب الشركات والأفراد، معظم مساحات الاقتصاد العالمي. وبناء عليها، تم صياغة برنامج عمل المؤسسات المالية والاقتصادية الدولية التي فرضته على الدول. أدى تطبيق هذه السياسات لاضطرابات سياسية واجتماعية، وتدهور عيش الفقراء الذين ازدادوا فقراً وازداد الأغنياء غنى.

لا تنحصر معارضة هذه السياسات باليسار، بل واليمين، خاصة المحافظين القدامى الذين يرون

(١٣) جوزف ستغلنز، هل ينهار السد في ٢٠٠٧م؟، المرجع السابق.

مأزق الأحادية العسكرية الأمريكية

يلاحظ كثير من المؤرخين والمحللين المتابعين (لاستراتيجيات القوى الكبرى ذات الماضي الإمبريالي في التاريخ الحديث) تحولات جذرية بقدرتها على الاحتفاظ بإمكانات عسكرية ضخمة، ففي ضوء عجز التحالف الأطلسي بأفغانستان، والتحالف متعدد الجنسيات بالعراق عن تأمين القوات اللازمة لإحكام السيطرة والتصدي للمقاومة فيهما، يقدم المحلل الأمريكي ماكس بوت رؤيته لمأزق الأحادية العسكرية الأمريكية، في ضوء انكماش الإنفاق الدفاعي، وتراجع القدرات العسكرية لقوى حليفة لها.

فقد عجزت بريطانيا فعلياً عن إبقاء سبعة آلاف جندي في العراق، إلى جانب نشر قوة مماثلة في أفغانستان. فتلك قوة عسكرية كبيرة وغير متوافرة لدى دولة لا يزيد تعداد سكانها على ٦٠ مليون نسمة، واقتصادها هو الخامس عالمياً. فقد انكمش جيشها من ٣٥٠ ألف جندي في ١٩٩٠م إلى ١٩٥ ألفاً اليوم، أي الجيش الثامن والعشرين عالمياً، واختفت تشكيلات لها تاريخ، ككتائب «بلاك ووتش» و«رويال سكوتس». وتراجعت «البحرية الملكية» العريقة لأصغر حجم لها منذ القرن السادس عشر. ويُتوقع استبعاد ما بين ١٣ و١٩ سفينة من الخدمة الفعلية، من إجمالي سفن الأسطول البالغة ٤٤ سفينة.^(١٦)

ويمكن استقصاء اتجاه مماثل لدى جميع حلفاء أمريكا تقريباً، باستثناء اليابان، وتعتبر كندا المثال الأبرز. فقد كان لها بنهاية الحرب العالمية الثانية، فوق المليون جندي في الخدمة، بينما كان أسطولها البحري الثالث عالمياً، فكانت قوته أكثر من ٤٠٠ سفينة. واليوم يبلغ عدد المجندين الكنديين ٦٢ ألفاً فقط، وعدد السفن الكندية الحربية ١٩ سفينة فحسب، إضافة إلى ٢٣ سفينة إسناد أخرى.

(١٦) ماكس بوت، تناقضات القوة الأمريكية، خدمة «نيويورك تايمز»، مارس/آذار ٢٠٠٧م.

لا حاجة للقول، برأي المؤرخ بول كنيدي^(١٤)، أن هذه الأهداف مبالغ في الطموح، وأن أول سؤال ينبغي أن يخطر بالبال: «هل تتوافر الإمكانيات الكافية لتحقيق مثل هذه الأهداف الطموحة؟» وللإجابة على السؤال في ضوء المآزق الذي تواجهه أمريكا في العراق، وتفاقم الأوضاع في أفغانستان، وتعرش التعامل مع ملفي كوريا الشمالية وإيران؛ ستكون الإجابة «لا» بأعلى صوت. فلا بد من أمرين لا ثالث لهما: تقليص الالتزامات الخارجية أو زيادة القدرات الذاتية. أما إذا لم يتخذ هذا ولا ذاك، فستعرض الولايات المتحدة حتماً لـ «كوارث ومهانة وتشويه سمعة الوطن».

فقدت أمريكا العسكرية، ليست الفواصات أو حاملات طائرات أو قاذفات بي-٢ العملاقة، وإنما قوات الجيش الموجودة على الأرض، والمنتشرة بخطوط طويلة تفوق قدراتها، ووحدات مشاة البحرية بالعراق وأفغانستان. لا حاجة لعبقرية عسكرية لإدراك أن هذه القوات وصلت آخر حدود قدرتها على الاحتمال، بل غدت أقل كثيراً بالنسبة للتوقعات والمهام المطلوبة منها بأرجاء العالم.

يقال: «ليس هناك أكثر خطورة في السياسة من التعلق بأطلال استراتيجيات فاشلة»، لكن حتى لو انسحبت القوات الأمريكية بنهاية المطاف من العراق، فالمشكلة الأساسية المتعلقة بالاستراتيجية الأمريكية الكبرى، وتحتاج لمعالجة هي: كيف يمكن لأحد تجاهل الفجوة المتزايدة بين أهداف أمريكا الكونية المعلنة، وبين قدراتها العسكرية على تحقيق هذه الأهداف؟^(١٥)

(١٤) في عام ١٩٨٨م، أصدر بول كنيدي، المؤرخ البريطاني البارز والأستاذ بجامعة ييل الأمريكية العريقة، كتابه الشهير «ظهور وسقوط القوى العظمى». استعرض كنيدي تجارب إمبراطوريات العالم وقواه العظمى منذ القرن السادس عشر حتى التاريخ المعاصر، والتقط الخيط المشترك بينها لعوامل الصعود والأفول. كان أبرز نتائجه أن القوى العظمى تدخل في دور التراجع والأفول عندما تتجاوز تكاليف المشروعات الإمبراطورية قدرات الإمبراطوريات العسكرية والاقتصادية أي: عندما تفوق تكاليف الإمبريالية عوائدها. من هذه الخلفية يستدعي كنيدي، بمقال نشر قبل عام، خبرة لورد سالزبري، رئيس وزراء الإمبراطورية البريطانية في العصر الفكتوري.

(١٥) بول كنيدي، أمريكا وتنامي الفجوة بين الأهداف الكونية والقوة العسكرية، خدمة «تريبيون ميديا سيرفيس»، ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦م.

يلاحظ كيفن ريان، الجنرال المتقاعد، أن الأولوية المقاتلة السبعة والثلاثين من قوة الجيش العاملة كلها تقريباً مُجَهَّدة بسبب حربي العراق وأفغانستان. وفي ظل انتشار جميع الوحدات أو عودتها من الانتشار، أو استعدادها للانتشار، لا توجد وحدات أخرى لمواجهة حالات طارئة أخرى. كما لا تتوفر الأولوية المقاتلة سوى ١٤ شهراً داخل الوطن قبل أن يعاد استدعاؤها لنشرها فترة ١٢ شهراً أخرى. أما الحرس الوطني، فلا يمكنه تعبئة سوى لواءين أو ثلاثة من ١٥ لواء مدرّباً، بسبب نقص العتاد. في هذا السياق، يرى الجنرال شوميكر أن أمريكا على شفا مسار خطر يفرض ضرورة زيادة عمقها الاستراتيجي واستعدادها، وتقليل الخطر الميداني.^(١٨)

بدوره، يتساءل الكاتب والمرشح الرئاسي السابق بات بيوكانن: ما هذه القوة العظمى الوحيدة في العالم التي يمكن أن ينكسر جيشها تحت وطأة تَمَرُّدَيْن؟ وكيف يمكننا أن نقترح حماية جمهوريات البلطيق، أو (كما يشتهي بوش والمحافظين الجدد) أن نحمي أوكرانيا وجورجيا من روسيا التي تريد الانتقام منهما؟ وكيف يمكن خوض حرب كورية ثانية بعد خوض الأولى بثلاث مليون جندي؟

ويستأنف: إذا كان جيشنا «على وشك الانكسار»، فهل فقد قائده الأعلى عقله عندما يصدر تهديدات بالحرب لإيران؟ وإذا كان جيشنا لم يُعدّ لخوض حروب طويلة، فهل جُن هؤلاء الذين يتحدثون بجموح عن خوض الحرب العالمية الرابعة؟^(١٩)

نهاية حقبة الهيمنة على الشرق الأوسط

يرى رئيس مجلس العلاقات الخارجية ومدير التخطيط السابق بوزارة الخارجية، ومسؤول سابق بمجلس الأمن القومي بثلاث إدارات جمهورية

(١٨) كيفن ريان، الجيش الأمريكي وافتقاد القدرة على خوض الحروب الطويلة، خدمة «نيويورك تايمز»، ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦م. جنرال أمريكي متقاعد وزميل «مركز بلزر للعلوم والشؤون الدولية» بجامعة «هارفارد».

(١٩) باتريك بيوكانن، جيش منكسر إمبراطورية منكسرة، خدمة كرياتورز Creators Service، ٢٠ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٦م.

هذا النقص الحادّ في عدد القوات البريطانية والكندية، تطال آثاره السلبية الولايات المتحدة نفسها، فمع نشر ١٦٥ ألف جندي أمريكي في العراق وأفغانستان، وإرسال المزيد للعراق، فذلك يعني استنزاف القدرة العسكرية البشرية للجيش الأمريكي. وأضحت أمريكا بأمر الحاجة لدعم عسكري من حلفائها، بينما لم يبقَ لهؤلاء ما يذكر من دعم وعون يمكنهم تقديمه لها في الواقع.

العامل الرئيس وراء ذلك هو انخفاض مستوى الإنفاق الدفاعي في الدول الحليفة؛ فقد انخفضت نسبة ميزانيات الدفاع من إجمالي الناتج القومي لأعضاء تحلف شمال الأطلسي، باستثناء أمريكا، من ٢,٤٩٪ في ١٩٩٣م إلى ١,٨٪ في ٢٠٠٥م، وبدون تصحيح هذا الاختلال، ليس من سبيل لتصحيح الأحادية العسكرية الأمريكية.^(١٧)

جيش إمبراطوري منكسر

في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٦م، أعلن الجنرال جون أبي زيد، أعلى قائد عسكري مكلف بالعراق، أن الجيش غير قادر على زيادة قواته بالعراق، كأول اعتراف يصدر عن مسؤول عسكري رفيع بأن القوات البرية الأمريكية وصلت حدود طاقتها في العمل العسكري. وبعدها بيومين، قال أبي زيد: إن الجيش الأمريكي لم يُعدّ لخوض حروب طويلة، وإنما أُعدّ لتحقيق النصر بسرعة ودقة، لأنه جيش متمرس في الحروب القصيرة، لا خوض حروب طويلة.

وبعد أسبوع، حذر رئيس هيئة الأركان، الجنرال بيتر شوميكر، من أن الجيش الأمريكي «سينكسر» بدون قوات إضافية. وأقر كولن باول، رئيس هيئة الأركان الأسبق، بأن الجيش «على وشك الانكسار»، ويعتقد أن أمريكا تخسر الحرب بالعراق، ويعارض زيادة القوات، فليس «هناك قوات إضافية، وما يمكن فعله هو الاحتفاظ بالقوات الموجودة هناك لفترة أطول، وتسريع وصول قوات أخرى».

(١٧) ماكس بوت، تناقضات القوة الأمريكية، المرجع السابق.

الأمريكي في المنطقة دون تفرد؛ ازدياد منافسة قوى خارجية أخرى على النفوذ؛ بروز إيران كإحدى أقوى دولتين في المنطقة استراتيجياً واقتصادياً، إضافة إلى إسرائيل، رغم أن حرب لبنان بصيف ٢٠٠٦م قد أضعفت إسرائيل؛ وتراجع فرص إحياء عملية السلام في المستقبل المنظور.

وسيستمر الاضطراب في العراق لسنوات؛ وارتفاع أسعار النفط مع ازدياد الطلب عليه؛ وسباق التسلح بالمنطقة؛ و«الإرهاب» سائداً في المنطقة؛ وتساعد دور الإسلام السياسي في ملء الفراغ بالعالم العربي؛ واستبدال نظم الحكم العربية؛ وضعف المؤسسات الإقليمية العربية، خاصة الجامعة العربية، وسيستمر كون الولايات المتحدة قوة ذات نفوذ هناك؛ لكنها لن تسيطر وحدها على هذا الإقليم، وعليها أن تشاطر قوى داخلية وخارجية أخرى النفوذ هناك؛ وهو الوضع السائد قبل عقدين. والنتيجة شرق أوسط أقل استقراراً.^(٢١)

كوارث المحافظين الجدد

يسمي فرانسيس فوكوياما، أحد المحافظين الجدد سابقاً، إخفاقاتهم الكبيرة بكوارث السنوات الخمس التي لم يتعلموا دروسها. يتساءل فوكوياما لماذا لم تتجح قوة ذات ميزانية دفاعية تعادل الإنفاق الدفاعي للعالم كله، في تحقيق استقرار بلد صغير لا يتجاوز أربعة وعشرين مليوناً، أو قيادته باتجاه حكم ديمقراطي ناجح، رغم أنها حاولت لسنوات وفقدت آلافاً من جنودها وأنفقت مئات المليارات؟^(٢٢)

يعتقد فوكوياما أن طبيعة السياسة الدولية في العقد الأول من هذا القرن تغيرت في نواح هامة. فالعالم اليوم، خاصة شمال إفريقيا والشرق الأوسط، وجنوب الصحراء الإفريقية ووسط آسيا؛ حيث تعم

وديمقراطية، ريتشارد هاس،^(٢٠) أن حقبة الهيمنة الأمريكية المتفردة على الشرق الأوسط انتهت بغزو العراق واحتلاله في ٢٠٠٣م، وابتدأت حقبة جديدة من التاريخ الحديث لهذا الإقليم. وستشكل هذه الحقبة بواسطة لاعبين جدد وقوى جديدة تتنافس على النفوذ؛ ولكي تبرز واشنطن في هذه المرحلة الجديدة، عليها الاعتماد أكثر على الدبلوماسية وليس القوة العسكرية.

عوامل نهاية الحقبة الأمريكية في المنطقة

قرار إدارة بوش بغزو العراق وأسلوب إدارته بعد احتلاله، واللجوء غير المبرر لعسكرة علاقاتها بدول وشعوب المنطقة؛ إخفاق عملية السلام في الشرق الأوسط؛ فشل الأنظمة العربية في مواجهة شعبية المد الإسلامي الأصولي؛ دور العولمة في تسهيل مهمة المتشددين في حشد التأييد الجماهيري والدعم المالي، ودور الفضائيات في جعل العالم العربي قرية إقليمية مُسيّسة.

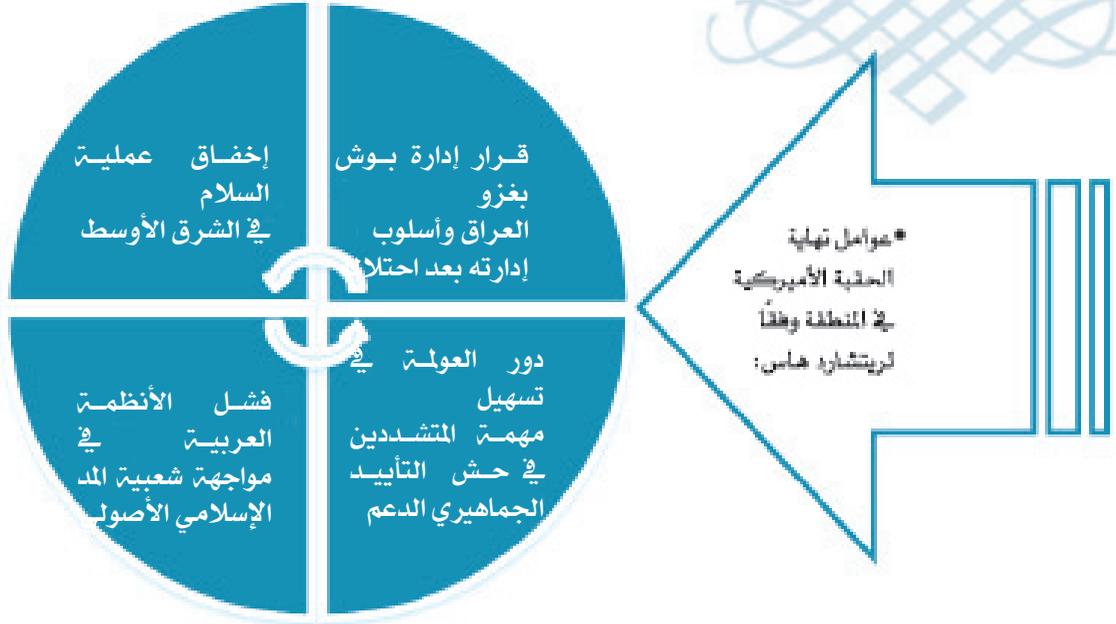
يتوقع د. هاس شرقاً أوسط جديداً يتراجع فيه النفوذ الأمريكي، كما يتوقع أن إيران وإسرائيل ستكونان فاعلين مؤثرين في الإقليم، وأن أطرافاً ليست دولاً - كحزب الله وحماس - ستتمتع بنفوذ ملموس. وستطغى على المرحلة قوى الإسلام السياسي. فهو شرق أوسط جديد مختلف لا يرحب به هاس، وهو إقليم غير مستقر فيه إمكانية اندلاع الصراعات، ويكون وطنياً - على نحو ما - للإرهاب، وربما يسوء الوضع أكثر؛ نظراً لما يجري في العراق. فهناك حقبة صعبة قادمة لا يُدْرَى مداها، الأمر الذي يؤكد الحاجة لإدراك أن الشرق الأوسط قد دخل بالفعل مرحلة جديدة، ومن الضروري أن يتكيف التفكير والسياسات الأمريكية مع هذا الوضع الجديد.

تتلخص ملامح حقبة ما بعد الهيمنة الأمريكية المتفردة، كما يراها هاس، في استمرار غلبة النفوذ

(٢١) ريتشارد هاس، الشرق الأوسط الجديد، دورية فورين أفيرز، نوفمبر/ديسمبر ٢٠٠٦م.

(٢٢) فرانسيس فوكوياما، المحافظون الجدد لم يتعلموا من كوارث السنوات الخمس الماضية، الغارديان، فبراير/شباط ٢٠٠٧م. يذكر أن الدكتور فرانسيس فوكوياما، الأستاذ بجامعة جونز هوبكنز، قد أصدر مؤخراً كتاباً بعنوان: «ما بعد المحافظين الجدد: الولايات المتحدة على مفترق الطرق».

(٢٠) الدكتور ريتشارد هاس رئيس مجلس العلاقات الخارجية ومدير مركز التخطيط السابق بوزارة الخارجية الأمريكية، والمسؤول السابق بمجلس الأمن القومي الأمريكي في ثلاث إدارات جمهورية وديمقراطية، كتب الدكتور ريتشارد هاس، مقالاً لافتاً بعنوان «الشرق الأوسط الجديد»؛ يقوم فيه الدور الأمريكي الراهن في الشرق الأوسط، ويستشرف مستقبله.



أسلحة نووية. الدرس الآخر من حرب العراق أن إدارة بوش أظهرت ضعفاً كبيراً في أدائها. ومن مظاهره البارزة: قدرتها المتدنية على مواصلة تحقيق أهداف وضعتها لنفسها، وتحركت الإدارة في العراق كمريض يعاني من ضعف التركيز؛ فقد أخفقت في تدريب القوات العراقية وتعيين السفراء وضبط العقود، وأخفقت بالمقام الأول في محاسبة المسؤولين عن الإخفاقات. كان يمكن علاج ضعف الأداء الميداني نظرياً بمرور الزمن، لكنه أدى لنتائج هامة على المدى القصير بالنسبة للاستراتيجية الأميركية الكبرى.

ساهمت الولايات المتحدة بزيادة قوة إيران إقليمياً باحتلالها للعراق وإسقاط نظام البعث، وإيصال أحزاب شيعية مؤيدة لإيران للسلطة في العراق. يتضح الفشل في استيعاب دروس حرب العراق في طريقة مناقشة المحافظين الجدد لتنامي قوة إيران الإقليمية وبرنامجها النووي. تمثل إيران تحدياً كبيراً للولايات المتحدة وأصدقائها في الشرق الأوسط. وبخلاف تنظيم القاعدة، إيران دولة لها تاريخ طويل، وبعكس العراق استفادت إيران كثيراً من ارتفاع أسعار النفط. (٢٣)

القتال، يتسم بوجود دول ضعيفة أو منهارة ولاعبين مؤقتين قادرين على الحراك عبر الحدود، بمساعدة القدرات التقنية ذاتها التي ولدت العولمة، وحازت القوة والتأثير جماعات كالقاعدة، أو أحزاب سياسية ذات ميليشيات كحزب الله في لبنان، أو جماعات عرقية طائفية أخرى.

يلاحظ فوكوياما أن العقيدة العسكرية الأميركية تعتمد استخدام القوة المفرطة وبشكل مفاجئ وحاسم لدحر العدو، لكن القوة المفرطة، في ظل غموض هوية الميليشيات والمسلحين، ستولد آثاراً عكسية؛ وستعزل الذين يحاولون دحر المسلحين ومنعهم من الحراك. فنوعية الحملة المطلوبة لدحر «الميليشيات»، و«الإرهابيين» المؤقتين، تقتضي تقديم الأهداف السياسية على العسكرية، وتؤكد على كسب القلوب والعقول لا ترويعها.

من دروس السنوات الماضية أن مبدأ بوش في استخدام الحروب الاستباقية لا تصلح وسيلة دائمة لحظر انتشار أسلحة الدمار الشامل، ووفقاً لفرانسيس فوكوياما، كانت خسائر الولايات المتحدة كبيرة جداً؛ بحيث إن الحرب على العراق جاءت بنتائج عكسية، وضعف تأثير قوة الردع العسكرية الأميركية التقليدية، وتضاءل معه احتمال شن حرب رادعة، إذا امتلكت دولة ما

(٢٣) فرانسيس فوكوياما، المحافظون الجدد لم يتعلموا من كوارث السنوات الخمس الماضية، المرجع السابق.

احتواء الصين

لم يُخف جورج بوش وفريق سياسته الخارجية، منذ حملة الانتخابات الرئاسية الأولى قناعتهم بضرورة احتواء الصين، وكان أول تفكير منهجي لذلك قد صدر عن كوندليزا رايس ووزير الخارجية، بمقال ذائع بمجلة «الشؤون الخارجية» رأت رايس أن الصين، كقوة صاعدة وطموحة، ستتحدى المصالح الحيوية الأمريكية، من جهة أنها قوة عظمى ذات مصالح حيوية مشتبكة، خاصة فيما يتعلق بتايوان، وأنها تمقت الدور الأمريكي في الحوض الآسيوي للمحيط الهادي.

فالصين-بالنسبة لرايس-ليست قوة تقبل بالوضع القائم، بل تريد تبديل توازن القوى لصالحها؛ وهذا يجعلها منافساً، ورأت رايس ضرورة اتخاذ استراتيجية تمنع صعود الصين كقوة إقليمية؛ لهذا من المهم تكثيف التعاون الاستراتيجي مع اليابان وكوريا الجنوبية، والحفاظ على وجود عسكري متمين في الإقليم، والاهتمام بدور الهند في ميزان القوى الإقليمي، وتشجيعها لدخول منظومة تحالف ضد الصين^(٢٤)

ينتظم الوجود العسكري للولايات المتحدة في آسيا تحت قيادة المحيط الهادي «باكوم»، وهي باستمرار أكبر قيادات المناطق الأمريكية وأكثرها قوة مهابة، وتضم أساطيل بحرية وجوية ومشاة بحرية وقواعد وجيوشاً تفوق ما لدى غيرها. في السنوات الأخيرة، أقام الأمريكيون تحالفات متنوعة عبر التفاوض على اتفاقيات أمنية مع دول: كفيتنام وسنغافورة وتايلند وكومبوديا والفيليبين، بمقر قيادة باكوم في هونولولو.

يرى المحلل الأمريكي روبرت كابلن أن المصالح التجارية والعسكرية الأمريكية تتجه صوب سياسة ردع متحفظة للصين دون استفزازها بلا داع، وهو ما يزيد من أهمية ودور باكوم هذا الموقف تجاه الصين والمحيط الهادي يؤكد بدوره فكرة الحرب الباردة الجديدة التي قد تدوم طويلاً جداً، وستلعب باكوم في هذه الحرب دور الناو في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي السابق.^(٢٥)

بنهاية ولاية بوش، يُرجح أن يتحول مركز الاهتمام الأمريكي إلى المحيط الهادي، وستتبنى الإدارة القادمة سياسة خارجية أقرب لسياسات الرؤساء الديمقراطيين أو الجمهوريين المعتدلين، وستصبح إدارة المخاطر حاکمة بدون مغامرات على نمط غزو العراق، كما أن دور باكوم في حوض الهادي لن يكون مقيداً بالسياسة الداخلية في واشنطن، أو ما يشابه اللوبي الإسرائيلي. كذلك، يبيد ضباط باكوم قلقهم من أن تعلن تايوان استقلالها، وهي خطوة قد تقود الولايات المتحدة لحرب مع الصين، في غير المصلحة القومية الأمريكية.

يقول مايكل فيكرز ضابط الاستخبارات السابق: إن الدخول في حرب مع الصين سهل، فهناك سيناريوهات غير تايوان؛ خاصة مع قيام الصين ببناء قدرات غواصات وصواريخ في أنحاء المحيط الهادي ولكن المعضلة هي كيفية إنهاء الحرب مع الصين؛ فقد يعني ذلك تغيير النظام؛ لأننا لا نريد أن نترك في المكان نظاماً مجروحاً وخواصاً، ولإنهاء الحرب، قد يضطر الأمريكيون إلى تقليص القدرة العسكرية للصين لتحد كبير، مما يهدد إمدادات الطاقة، وقبضة الحزب الشيوعي على السلطة. ولن يكون العالم هو ذاته بعد الحرب؛ إنه طريق من الخطورة الكبيرة السير فيه، وفقاً للمحلل من البنتاغون.^(٢٦)

يبقى خيار باكوم الأفضل لردع الصين بناءً على محور عزل يمتد من مقربا كوم هجزرها واي إلى كبار الحلفاء اليابان وكوريا الجنوبية وتايلند وسنغافورة وأستراليا ونيوزلندا والهند. هدف هذا الترتيب إعاقة الصين ببراعة على نحو تحييد الناو للاتحاد السوفييتي، بيد أن تحول الأولويات على يد المحافظين الجدد عقب هجمات ١١ سبتمبر/أيلول، واحتلال أفغانستان والعراق شغلت إدارة بوش ومواردها، ولم تدع مجالاً للفعول ضد الصين.

المرجح أن الصين سوف تواجه مخططات الاحتواء والردع بعدة طرق. فهي دولة ذات عقلية دفاعية، بتطوير أساليب وتقنيات تواجه التفوق العسكري الأمريكي،^(٢٧) وجيشها شديد الاجتهاد والتوق

(٢٦) روبرت كابلن، سيناريوهات الحرب الباردة الثانية. هكذا ستحارب أمريكا الصين، المرجع السابق.

(٢٧) منذ عقود دأبت المؤسسة العسكرية الصينية على دراسة منظومات الأسلحة الأمريكية، وتصميم تقنيات ومنظومات تسليح تستهدف إحباط فاعلية المنظومات الأمريكية وتطوير وسائل مواجهتها، وكانت جامعة الدفاع الوطني الأمريكية قد ترجمت عدداً من الدراسات والكتيبات

(٢٤) مازن النجار، التجارة والقوة الناعمة طريق اللحم الصيني رغم مخاطر الاحتواء، المجلة، أغسطس/آب ٢٠٠٦م.

(٢٥) روبرت كابلن، سيناريوهات الحرب الباردة الثانية. هكذا ستحارب أمريكا الصين، دورية وجهات نظر، العدد ٧٧، يونية/حزيران ٢٠٠٥م، ص ٤٤-٤٩.

لم يعد دور المجموعة الصهيونية الأمريكية في صوغ أولويات الاستراتيجية الأمريكية، وتوجيه سياساتها التنفيذية موضوعاً قابلاً للشك، كما أن ولاءهم للمشروع الإسرائيلي وخدمته يفوق أيّ ولاء آخر؛ ولهذا شهدت السياسات الأمريكية والإسرائيلية تماهياً لا سابق له في تاريخ العلاقات الأمريكية الإسرائيلية.

وذلك لأن هدف السياسات الأمريكية الحقيقي خلال السنوات الماضية هو المشروع الإسرائيلي بالمنطقة أي: تجزئتها بما ينسجم مع نظرية أنها فسيفساء طائفية وعرقية وجهوية ودينية، وتسقط عنها هويتها العربية والإسلامية؛ ولهذا سُمي المشروع «الشرق الأوسط الكبير»: لأن هدفه إقامة شرق أوسط مؤلف من دويلات متعادية ومشلولة وعاجزة، بما يسمح لإسرائيل بإخضاعها لهيمنتها. فالهدف من حرب العراق إسرائيلي بالدرجة الأولى، وليس النفط أو حتى تحقيق سيطرة أمريكية تقليدية.^(٢٩)

خيارات إدارة بوش في العراق

في فبراير/شباط ٢٠٠٧م، توصل نخبة ضباط وخبراء مكافحة التمرد ومستشارين لقيادة القوات الأمريكية بالعراق، لقناعة بأنه لم يعد أمام أمريكا سوى ستة أشهر للانتصار في حرب العراق، أو مواجهة انهيار على طريقة فيتنام؛ سيكون أولاً في التأييد الشعبي والسياسي، وقد يضطر الجيش لسحب قواته بصورة متعجلة. توقع الضباط سماع المزيد بواشنطن حول الخطة (بي) أي: خطة الانسحاب بحلول الخريف، وهو ما لم يحدث بعد، بل سمعوا معجزات عن نجاحات مجالس الصحة؛ مما يعني أن لا فرصة لتراجع الرئيس وإدارته عن المسار الراهن.^(٣٠)

يلاحظ الجنرال وليم أودوم أن «تقديرات الاستخبارات الوطنية حول العراق» الصادرة بداية ٢٠٠٧م، تحدد أبعاد الفجوقبين وأهام الرئيس وواقع الحرب، فإن كان الانتصار، كما يراه الرئيس، يشترط ديمقراطية ليبرالية مستقرة للعراق

للتعلم والتكيف. ودفعت حروب كوسوفو والعراق مخططي الجيش الصيني للتركيز على مواجهة هيمنة التكنولوجيا الأمريكية في أرض المعركة^(٢٨)

معالم استراتيجية إدارة بوش

بعد سقوط دعاوى أسلحة الدمار الشامل لتبرير الحرب على العراق واحتلاله، ودعاوى إقامة النموذج الديمقراطي في العراق، رجّح أكثر المتابعين أن الهدف هو السيطرة على ثروة النفط، وعزز ذلك علاقة إدارة بوش بشركات النفط، والحديث النظري عن أهمية السيطرة على النفط لتحقيق الهيمنة الأمريكية على العالم، والضغط على المنافسين كالصين وأوروبا.

وسوغت أطروحة المحافظين الجدد تحوّل أولوية الاستراتيجية الأمريكية لإقامة نظام شرق أوسطي، بدلاً من احتواء روسيا والصين، بأن السيطرة على الشرق الأوسط تهدف إلى تطويق الصين وروسيا لاحقاً. جاء هذا التسويغ مدعاة للسخرية؛ لأنه أدى فعلاً إلى مهادنة روسيا والصين، لإنجاح أولويات الحروب التي شُنت على بلاد عربية وإسلامية.

وأتاح تغيير الأولويات الأمريكية للرئيس الروسي فلاديمير بوتين ست سنوات ذهبية لبناء دولة قوية متماسكة؛ فروسيا تقف الآن على قدميها، بينما غرقت الإدارة الأمريكية في مشروعه شرق الأوسطي، كما أتاح ذلك للصين غزو أسواق العالم بتجاريتها واستثماراتها النفطية طويلة الأمد خارجياً، فضلاً عن مستوى القوة العسكرية والتكنولوجيا العالية داخلياً.

التحول الخطير في أولويات الاستراتيجية الأمريكية من احتواء روسيا والصين إلى إخضاع الشرق الأوسط، لا يفسر إلا تسخيراً للمحافظين الجدد للاستراتيجية الأمريكية لخدمة المشروع الإسرائيلي، والتمكين له، في منطقة يجب أن يعاد صوغها لتصبح خاضعة له، وعاجزة أمامه. وهذا ما يُرجح من خلال تتبع السياسات الأمريكية خلال السنوات الماضية، تحديداً بعد أن قدمت أحداث ١١ سبتمبر/أيلول الذريعة لصهاينة أمريكا في إدارة بوش وخارجها لتغطية الانقلاب في أولويات الاستراتيجية الأمريكية.

(٢٩) منير شفيق، في فهم الاستراتيجية الأمريكية لإدارة بوش، موقع الجزيرة نت، وجهات نظر، ٣٠ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٧م.
(٣٠) تقرير بصحيفة الغارديان، ١ مارس/آذار ٢٠٠٧م.

التي يتداولها الجيش الصيني.
(٢٨) روبرت كابلن، المرجع السابق.

أساطير تروج لأهداف استراتيجية الرئيس الجديدة، وأكثرها أهمية وتكراراً:

١- «ينبغي مواصلة الحرب لمنع حدوث مرحلة ما بعد الحرب التي قد تقع إذا انسحبت قواتنا بسرعة». لنتأمل مغالطات ومفارقات هذا الادعاء؛ فالواقع أننا نخوض اليوم حرباً لأجل تضادي ما جعله غزونا أمراً محتملاً وبالتالي، لا شك أننا سنترك وراءنا فوضى تسببنا فيها، وتتفاقم مع كل عام نمكته هناك. النواب الأمريكيون يعبرون عن معارضتهم للحرب، ولكنهم أيضاً يعبرون عن خشيتهم من أن يؤدي التخلي عن الحرب إلى كَمَام دم، أو حرب أهلية، أو مأوى للإرهاب، أو «دولة فاشلة»، أو غير ذلك من الأمور المضغعة. غير أن «مرحلة ما بعد الحرب» واقعة لا محالة. وبالتالي، فإن احتلالاً أمريكياً مطولاً لا يمكن منعه أمر واقع بالضرورة.

٢- «ينبغي مواصلة الحرب لمنع إيران من توسيع نفوذها في العراق». وهي فكرة أخرى لا تقل غرابة، فأحد أهداف الرئيس الأولى من الحرب، أي إقامة ديمقراطية في العراق، هو الذي أتاح تزايد النفوذ الإيراني في العراق والمنطقة. فمن شأن الديمقراطية الانتخابية أن توصل المجموعات الشيعية للسلطة. ثم لماذا يتبنى الكثير من أعضاء الكونجرس الرأي الذي يرى أن تمديد الحرب من شأنه منع ما تسببت فيه الحرب أصلاً؟ الواقع أن الخوف من أن يواجه الكونجرس هذا التناقض يفسر منادات بعض أعضاء الإدارة الأمريكية والمحافظين الجدد بتوسيع الحرب لتشمل إيران.

٣- «ينبغي منع ظهور ملاذ جديد للقاعدة في العراق»، والحقيقة أن الغزو الأمريكي هو الذي فتح أبواب العراق للقاعدة، وكلما طال وجود القوات الأمريكية هناك، كلما أصبحت «القاعدة» أكثر قوة. أما إن كانت العناصر الأجنبية ستبقى وتزدهر في العراق بعد نهاية الحرب الأهلية فهو موضع تساؤل، وخلال ذلك لن تُخرج مواصلة الحرب «القاعدة» من العراق، بل العكس صحيح، فالوجود الأمريكي يمثل

ومالية لأمريكا، فتقديرات الاستخبارات الوطنية تصف حرباً لا حظ لها في تحقيق تلك النتيجة. فهذه التقديرات، التي تعكس رأي وكالات الاستخبارات الأمريكية، تمثل إعلان هزيمة فلم تكن هناك أبداً طريقة صائبة لغزو العراق وتحويله نحو الديمقراطية، ويعلم معظم الأمريكيين ذلك يقيناً. (٣١)

يَبْدَ أَنْ هُنَاكَ حَقِيقَتَيْنِ أَسَاسِيَتَيْنِ لَا بَدَ مِنْ تَوْضِيحِهِمَا:

الأولى: فكرة أن الولايات المتحدة تستطيع خلق ديمقراطية دستورية ليبرالية في العراق، تتحدى كل ما يعرفه الخبراء والمختصون. فمن بين الديمقراطيات الأربعين التي قامت منذ الحرب العالمية الثانية، هناك أقل من ١٠ ديمقراطيات يمكن اعتبارها حقاً «دستورية» أي: نظامها الداخلي محمي بسيادة القانون، ويمكنه الاستمرار لجيل على الأقل، ولا يوجد بلد عربي أو إسلامي بين هذه الديمقراطيات، وهذا لا يعني عجز العرب عن التحول ديمقراطياً، بل يعني أن البلاد العربية، وأغلبية دول العالم ترى أن إقامة ديمقراطية دستورية مستقرة أمر يتجاوز إمكاناتها.

الثانية: أن نتوقع زعيماً عراقياً يحافظ على تماسك بلاده ويكون موالياً للولايات المتحدة، يناقض العقل والمنطق، فقد احتاجت الولايات المتحدة أكثر من قرن لتتجاوز عداها للاحتلال البريطاني، ويمرور كل شهر من الاحتلال الأمريكي للعراق تسجل استطلاعات الرأي تصاعد عداة العراقيين للولايات المتحدة، فحتى أنصار الوجود العسكري الأمريكي يقولون: إنه مقبول مؤقتاً، ولأجل تجنب انتصار إحدى الفصائل المتصارعة في العراق.

ولكن، لماذا لم يتحرك الكونجرس بعد أكثر من عام على خسارة الجمهوريين لأغلبية مجلسيه لتغيير هذا الواقع؟ كثير من أعضائه يصدقون

(٣١) وليم أودوم «الانتصار».. خيار بوش الأسطوري، خدمة «لوس أنجلوس تايمز» وواشنطن بوست»، فبراير/شباط ٢٠٠٧م. الجنرال المتقاعد وليم أودوم، رئيس الاستخبارات العسكرية، ومدير وكالة الأمن القومي الأسبق، وزميل معهد «هدسون» حالياً.

صمغاً يحافظ على «القاعدة» هناك اليوم.

والحقيقة أن إعادة تنظيم قدراتنا الدبلوماسية والعسكرية لتحقيق النظام في العراق، ستقلل أعداءنا وتُكسبنا حلفاء جددًا؛ لكن هذا غير ممكن قبل بدء انسحاب قواتنا من العراق، ثم لماذا على إيران أن تتفاوض من أجل تخفيف آلامنا طالما نقوم بزيادة نفوذها في العراق وغيره؟

خاتمة

احتل المشروع الإمبراطوري للرئيس جورج بوش معظم سنوات ولايته الرئاستين، ومعظم حراك إدارته، تم إخراج هذا المشروع على خلفية أحداث ١١ سبتمبر/أيلول، بعنوان «الحرب على الإرهاب». لم يكن تخطيط هذا المشروع، وطريقة إخراجهِ وتسويقه من اختياره، بل يعود للمحيطين به من المحافظين الجدد، الذين قاموا في عهد إدارة ريغان بتسويق أكاذيب هائلة حول الاتحاد السوفييتي السابق لتصعيد الحرب الباردة وسباق التسلح.

في ضوء تكاليفه الباهظة ونتائجه الهزيلة وآفاقه المجهولة، يقف مشروع بوش الإمبراطوري على مفترق طرق، بل يوشك أن يصل منتهاه بتصاعد الحملة الانتخابية الرئاسية التي بدأت في الأسبوع الأول من هذا العام انتخاباتها الحزبية التمهيدية لاختيار مرشحي الحزبين المتنافسين. وأمام بوش بضعة أشهر لإطلاق آخر ما في جعبته من نيران لشن حرب أخرى، يمكن إشعالها دون التنبؤ بنهاية لها.

خلقت «الحرب على الإرهاب» ثقافة الخوف في الولايات المتحدة، فقيام إدارة بوش بتحويل هذه الكلمات الثلاث إلى شعار وطني منذ أحداث ١١ سبتمبر/أيلول كان له تأثير مدمر على الديمقراطية الأمريكية والنفسية الأمريكية، ومكانة الولايات المتحدة في العالم، بل إن استخدام عبارة «الحرب على الإرهاب» قد قوض قدرة أمريكا على مواجهة التحديات الحقيقية التي تواجهها.

وكما يحدث في كل دولة سمحت بممارسة التعذيب، انتشرت الانتهاكات انتشار النار في

الهشيم، ويتحول كل أسير وسجين يتعرض للتعذيب لفتيل انفجار قنبلة موقوتة؛ ولذلك يواجه الجنود الأمريكيون بالعراق، قنابل موقوتة فعلية تُزرع يوميًا بجوانب الطرق. فالتساهل في التعذيب يجعل هذا السلوك سائدًا في الهرم القيادي من قمته إلى قاعدته هناك؛ حيث حلت الاستثناءات (النادرة) محل القاعدة الراسخة.

تناول هذا العمل مختلف مناحي التجربة والموقف الأمريكي في سنوات إدارة بوش السبع الماضية، خاصة الحرب على الإرهاب، وما ترتب عليها من تحولات جوهرية في الأولويات الاستراتيجية للولايات المتحدة، والأوضاع والسياسات الاقتصادية، وتكاليف الحرب وسباق تبديد الموارد الناجم عن سعار وأوهام الخوف، ومعالم الاستراتيجية لإدارة بوش، والجهد الأمريكي لاحتواء وردع الصين، وخيارات إدارة بوش في العراق، وتناقضات القوة الأمريكية، وتفاقم أعباء الجيش الأمريكي، ومآزق الأحادية العسكرية الأمريكية، وقصور الموارد عن الوفاء باحتياجات المشروع الإمبراطوري، ونهاية حقبة تفرد الهيمنة الأمريكية في الشرق الأوسط الجديد.

وأخيراً معالم مؤتمر أنابوليس:

شهد مؤتمر أنابوليس أواخر نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٧م تدشين تحول جديد لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي وقضية فلسطين، على جدول الأعمال الأمريكي الإسرائيلي، وربما «الفلسطيني والعربي الرسمي» أيضاً. فالقضية الفلسطينية لم تعد قضية احتلال وطن وشعب يطالب بالاستقلال وعودة الديار، بل هي ساحة أخرى للحرب على الإرهاب والتطرف الأصولي. فخطابا الرئيس الأمريكي جورج بوش، ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت، لم يذكر شيئاً عن «احتلال»، أو «إنهاء الاحتلال»، أو «انسحاب» أو «إنهاء الاستيطان»، أو «إعادة مستوطنات»، أو «إزالة حواجز الإذلال»، أو وقف اغتصاب أراضي القدس وتهويدها، أو «وقف بناء الجدار العازل» الذي يلتهم أراضي الضفة الغربية، ويفصل منازل

التلاميذ الفلسطينيين عن مدارسهم، ويغلق الأزقة المؤدية لأبواب منازل أهل القدس العتيقة.

بدا مؤخرًا أن موضع الخلاف الأكبر بين واشنطن وطهران هو دور الأخيرة وطموحاتها الخطرة في العراق، وهو خلاف جيوسياسي بالغ الأهمية، قد يفوق في أولويته، وأهميته الراهنة لإدارة بوش، الخلاف حول الملف النووي، فالبرنامج النووي الإيراني سيبقى شغلًا شاغلًا للإدارة الأمريكية القادمة والاتحاد الأوروبي؛ لأنه يتعلق بجزء هام من مكونات منظومة السيطرة الغربية على العالم، «نظام أو معاهدة منع الانتشار» النووي (NPT)، لكن إدارة بوش حاليًا مَعْنِيَّة أكثر بالفشل والمصاعب في العراق، وذلك ما تستطيع إيران دائمًا أن تفاقمه، ويبدو أحيانًا أن التصعيد الأمريكي للعقوبات ضد إيران (بذريعة البرنامج النووي) هو في الحقيقة انعكاس لمصاعب البرنامج النووي «قدس» التابع للحرس الثوري الإيراني في العراق، وهذا ما يفسر العقوبات الأمريكية ضد الحرس الثوري وإعلانه «منظمة إرهابية»، لكن احتمالات الحرب ستستمر متراوحة بين الزيادة والنقصان حتى نهاية ربيع ٢٠٠٨م، حين يكون مزاج الرأي العام غير مهيبٍ لحرب أخرى، وتهدد بدورها فرصة المرشح الجمهوري للرئاسة. والله أعلم.



معلومات إضافية

المحافظون الجدد:

يطلق هذا المصطلح في الولايات المتحدة الأمريكية على اتجاه سياسي برز منذ الستينيات من القرن العشرين يضم بين صفوفه عددًا كبيرًا من المفكرين اليهود، وظهر تأثيره واضحًا على إدارة كل من الرئيسين الأمريكيين: رونالد ريغان وجورج دبليو بوش، ويتصف بميله إلى اليمين المسيحي المتطرف، وإيمانه بقوة أمريكا، وضرورة هيمنتها على العالم، ودعمه القوي لإسرائيل.

التأسيس:

كان منشأ هذا الاتجاه مع خروج مجموعة كبيرة من المفكرين اليهود واليمينيين من الحزب «الديمقراطي» إبان ولاية «جيمي كارتر»، وتحولهم إلى الحزب «الجمهوري»، متبنين سياسة متشددة تدعو إلى تعزيز القوة العسكرية، ومواجهة السوفييت، وزادت هيمنتهم على السياسة الخارجية الأمريكية في عهد رونالد ريغان، الذي آمن بفكرة التصعيد، ورفض نقد اليسار اللاذع للثقافة الأمريكية.

حَفَّت تأثير هذا التيار مع أواخر فترة حكم ريغان في نهاية ثمانينيات القرن العشرين، ولكنه عاد بقوة بعد تولي جورج بوش الابن رئاسة الولايات المتحدة مطلع القرن الحالي، وازداد نفوذه وتأثيره بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م؛ حيث وجد المحافظون الجدد فرصتهم المواتية للأخذ بناصية القرار السياسي، في عهد وإدارة بوش الابن، الذي أوكل إلى أفراد مؤثرين منهم مناصب في مواقع سيادية مثل وزارات الدفاع والعدل والبيت الأبيض، وفي مواقع أخرى لها تأثيرها المباشر بالسياسات الخارجية والدفاعية والاجتماعية في الولايات المتحدة.

أهم أفكار المحافظين الجدد:

المحافظون الجدد ليسوا ساسة فقط؛ حيث تكمن خطورتهم في أنهم كُتَّاب ومفكرون ومثقفون، أصحاب فكر متجدد، وقدرة لا تنتهي على الجدل، وركّز المحافظون الجدد منذ وصول بوش إلى البيت الأبيض على جزئية صناعة السياسات، والتحكم في المناصب الحيوية، وتحديدًا منصب نائب الرئيس، وخلال السنوات الأخيرة ساند المحافظون الجدد بقوة عددًا من الأفكار التي اكتسبت رواجًا واسعًا في واشنطن.

على رأس الأفكار التي يساندها المحافظون الجدد: الإيمان بأن أمام أمريكا فرصة غير مسبوقة لإعادة صياغة النظام العالمي، نابغة من حالة الفراغ التي يعيشها النظام العالمي الراهن بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، كما ارتبط المحافظون الجدد ببعض المفاهيم الاستراتيجية التي طبقتها إدارة بوش مثل مفاهيم الحرب الوقائية، وتغيير النظم، وهيمنة أمريكا (الخيرة) على العالم.

يؤمن المحافظون الجدد بأن الخطر الأساسي الذي يهدد أمريكا حاليًا هو خطر ما يسمى «الإرهاب»، الذي تقوم به -على حد قولهم- جماعات مسلمة في الأساس يختلف المحافظون الجدد على تسميتها، ولكنهم يتفقون على أن العالم الإسلامي عمومًا، والشرق الأوسط خصوصًا، هما نقطة انطلاق أمريكا في سياستها لإعادة بناء النظام العالمي الراهن.



ويُكرِّم المحافظون الجدد قدرًا كبيرًا من الرفض لدور المنظمات الدولية، والقانون، وجهود الحدّ من التسلح، وبشكل خاص يناصبون «الأمم المتحدة» العداوة؛ حيث يرون أن القوة العسكرية يجب أن تبقى أساسًا رئيسًا للسياسة الخارجية.

تعد السمة المميزة التي ظلت تجمع المحافظين الجدد هي حبهم ودعمهم وولائهم لإسرائيل، واتهامهم من يخالف مواقفهم في تأييد الدولة العبرية بتهمة «العداء للسامية». فالمحافظون الجدد يعتبرون أن المصالح الأمريكية والإسرائيلية يجب أن تكون متماثلة.

للمحافظين الجدد تحالف وثيق مع الصهيونيين المسيحيين، وجاء في دراسة للبروفيسور القس دونالد واغرن -من جامعة نورث بارك في شيكاغو- عن الصهيونية المسيحية أن دعمها للمحافظين الجدد وإسرائيل هو دعم تحركه المشاعر المعادية للإسلام، والتعصب الديني أكثر من المشاعر الدينية المسيحية.

ويرى واغرن أن التحالف بين المحافظين والصهيونيين المسيحيين استطاع، بعد أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م، توسيع ما يسمى الحرب على الإرهاب ليشمل حرب إسرائيل على الفلسطينيين.

بعض أبرز رموز المحافظين الجدد:

- ليو ستراوس Leo Strauss: يعتبر ستراوس اليهودي الأمريكي من أصل ألماني، وأستاذ الفلسفة السياسية الراحل بجامعة شيكاغو الأمريكية، هو الأب الفكري للمحافظين الجدد؛ حيث أثرت أفكاره في العديد من المثقفين الذين أصبحوا من رموز المحافظين الجدد، مثل بول وولفويتز، ووليام كريستول، وغيرهم، وكان ستراوس يدعو إلى بناء أمريكا كقوة كبرى تحارب الشر في العالم.

- إرفنج كريستول Irving Kristol: يُعد المفكر اليهودي الأمريكي «إرفنج كريستول» من أهم مفكري المحافظين الجدد، وإليه ينسب تأسيس هذا الاتجاه، وقد عمل كريستول خبيرًا أو مستشارًا في كثير من المؤسسات البحثية ومؤسسات الخبرة، القريبة من مؤسسات صنع القرار في الولايات المتحدة، وهو أحد مؤسسي مجلة كومنتري، الصادرة عن «اللجنة اليهودية الأمريكية»، والناطقة باسم المحافظين الجدد، ويدعوها البعض «إنجيل المحافظين الجدد».

- بول وولفويتز: نائب وزير الدفاع الأمريكي السابق، ورئيس البنك الدولي السابق، يصفه البعض بأنه «دماغ المحافظين الجدد»، وكان المحافظون الجدد يفخرون به؛ باعتباره منظرًا من الطراز الأول للسياسة الخارجية الأمريكية، كما يعد من أبرز مهندسي احتلال العراق، وأكثر المتحمسين للغزو.

- ريتشارد بيرل: يعتبر اليهودي «بيرل» الملقب بـ«أمير الظلام» -والذي كان يشغل منصب رئيس مجلس سياسة الدفاع الأمريكي- هو مُنظرُ احتلال العراق، وصاحب الأثر الرئيس في قرار الغزو، وهو أيضًا صاحب نظرية استخدام القوة الأمريكية لتدمير أعداء إسرائيل.

- دوجلاس فيث: شغل منصب وكيل وزارة الدفاع الأمريكية للشئون السياسية، واستقال لتورطه في سلسلة فضائح استخباراتية، ويعتبر «فيث» من أكثر مؤيدي اليمين الصهيوني حماسةً، وكان من أنصار تزويد إسرائيل بالنفط العراقي عبر إعادة خط أنابيب حيفا، ودعا منذ عام ١٩٩٦م للإطاحة بصدام حسين كـ«خطوة أولى لإعادة تشكيل المحيط الاستراتيجي» لإسرائيل.

- جون بولتون: ينتمي السفير الأمريكي السابق في الأمم المتحدة «جون بولتون» إلى صفوف المحافظين،





ويعتبر من أبرز رموز المحافظين الجدد، وكان عضواً في إدارة المجلس الاستشاري لـ«المعهد اليهودي لشئون الأمن القومي»، وقد عُرف عنه احتقاره للقوانين الدولية.

المصادر:

- عماد مكي، تحالف الصهيونية المسيحية مع المحافظين الجدد، الجزيرة نت، ٢٧/١٢/٢٠٠٦.

- علاء بيومي، المحافظون الجدد وصقور واشنطن باقون، الجزيرة نت، ٢٨/١١/٢٠٠٦.

- عزت إبراهيم، كيف سعد المحافظون الجدد في إدارة جورج بوش... العالم أبيض أم أسود عند المحافظين الجدد، تقرير واشنطن، العدد الثامن عشر، ٦/٨/٢٠٠٥.

- علي عبد العال، المحافظون الجدد.. حلف الشيطان، شبكة الأخبار العربية «محيط»، ٢٧/٩/٢٠٠٧.



